أسبوعيات نائب

زيارة بوش للمنطقة .. تهدئة مؤقتة لاستفراد القوى التي حان دورها

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

نصدق بوش أو لا نصدقه ؟

هذا سؤال ورد على لسان بوش نفسه أول أمس ، في معرض التقديم بين يدي زيارته لمنطقتنا وإبداء عزمه على السير قدما بمشروع خارطة الطريق ، إذ قال إنه يعرف أن الشكوك تحيط بمشروعه إلى حين إطلاع العالم على ظهور دولة فلسطينية ، وأضاف ردا على أحد الأسئلة إنه سيكون قادرا على الضغط على شارون . ويبدو أن مجرد إعلانه عن الزيارة أوجد مناخا مختلفا في المنطقة كلها ، خرج عرب أمريكا على إثره - وبينهم فلسطينيو أمريكا - المستندون للوعود الأمريكية وللحضن الأمريكي ، ليقولوا للناس : هل رأيتم أننا كنا الأبعد نظرا ؟ راجعوا مفاهيمكم ! فهذا إعلان عن عصر جديد !

فكأن الناس كانت مخطئة في حق أمريكا وعليها الآن التكفير عن ذلك الخطأ . أو كأن أمريكا تكلمت قديما بلسان أعجمي ثم تكلمت الآن بكلام عربي مبين . أو كأن أمريكا تغيرت فوجب علينا أن نتغير مع تغيرها .

ولكن .. هل الكلام الذي صرح به بوش جديد فعلا ؟ أم سبق لرئيس أمريكي سابق هو جيمي كارتر أن قال قبل ثلاثين سنة كلاما مماثلا في الأقصر بمصر عن رغبة الولايات المتحدة في أن يكون للفلسطينيين " وطن قومي " في ديارهم ، ثم عاد الناطق باسم البيت الأبيض في اليوم التالي فسحب التصريح !؟ إن الرئيس بوش يعد نفسه ، على حد قوله ، " أول رئيس أمريكي في التاريخ يقف ليقول إنني مع قيام دولتين تعيشان معا بسلام جنبا إلى جنب " (ونتساءل بالمناسبة :أي تاريخ يا ترى ؟ هل يعرف الرئيس بوش شيئا عن آثار الكنعانيين العرب في فلسطين ؟ وما عمر الولايات المتحدة كله ؟).

ليس هذا شديد الأهمية . فقد تغير الزمان من ناحية ، وأصبح تصديق السيد الأمريكي (حاجة وضرورة) من ناحية أخرى . ونحن من الذين يعرفون حتمية الاستماع إلى رعود الأمريكيين في المنطقة ، فهي رعود تفرض نفسها على البيئة كلها وعلى الناس كلهم . وقد كانت مجلجلة في العراق ، وما زالت تجلجل في أسماع الحكام ، على الرغم من أن اللباقة الأمريكية تضع لها حاليا كواتم الصوت المناسبة في محاولة للإيحاء لشعوب المنطقة أنه ليس بعد الرعود إلا الغيث العميم .

ثقة مشروطة ؟

ولن نتوقف طويلا أمام بقية كلام الرئيس بوش وصياغاته ذات الجانب المزعج ولكننا نشير بسرعة إلى لازمات أمريكية تلازم كل تصريح أمريكي تقريبا . فهو يقول :" إنني أثق برئيس حكومة السلطة الفلسطينية عندما يدين الإرهاب " . فهل إدانة الإرهاب شرط لتلك الثقة ؟ وماذا يعني الإرهاب ؟ وما هي التوابع المنتظرة أمريكيا من تلك الإدانة وهل شهداؤنا ومناضلونا الفلسطينيون من أجل الحرية والاستقلال إرهابيون ؟ وهو يقول أيضا : " على القادة العرب تجفيف مصادر دعم الإرهاب " . فهل من قبيل دعم الإرهاب سد رمق أسر الشهداء وتقديم العون إلى الفلسطينيين في هذه الضائقة الأليمة التي تفنن الإسرائيليون في إطباقها على الفلسطينيين كافة ؟

ما يهمنا في مناسبة زيارة بوش للمنطقة هو أن ننبه أنفسنا إلى أمرين متلازمين :

- ضرورة تفهم هذا الزمن الذي يجعل أمريكا منفردة بالقوة على المسرح السياسي العالمي والمحلي . وإدارة المعركة السياسية وتقدير الموقف تقديرا يمكن أن يؤدي إلى تعديل السياسات وفق مقتضيات هذه الحقيقة ومتطلباتها المفروضة وبالقدر الذي يحقق المصلحة الفلسطينية العامة دون التفريط بثوابتنا وشخصيتنا ، وعدم خسران معركة الرأي العام الأمريكي والأوروبي ، مع البحث دائما عن ميلاد تضامن عربي يشكل نوعا من القوة للوطن العربي الكبير وقضاياه العديدة وبزوغ شمس توازن دولي يمكن الاستناد عليه .

- الحذر الشديد من الولايات المتحدة ونواياها ومشروعاتها . والتعامل معها انطلاقا من حقائق التركيبة الأمريكية في الإدارة والكونغرس والكنيسة المتصهينة وكلها مؤسسات معادية للعرب والمسلمين جهارا نهارا وانطلاقا أيضا من التصريحات السياسية الأمريكية المعلنة التي حددت الاستراتيجية السياسية للدولة الأمريكية بأنها الحرب على الإرهاب مدة عشر سنوات (دون أي تعريف لذلك الإرهاب ودون أن يستثنوا الشعب العربي الفلسطيني الذي هو صاحب فلسطين ومالكها من هذه الدمغة التي يدمغون بها الناس على هواهم) وحددت أيضا هدف تلك الاستراتيجية بأنها إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يناسب المصالح الأمريكية .

القتل أثناء الاعتقال !

إن المواطن الفلسطيني مرتاح إلى التصريحات الصادرة من جانب السيد عباس ومن جانب الفصائل الفلسطينية التي أجرى معها الحوار . فالفصائل أظهرت استعدادا للتقيد بمتطلبات مسؤول المرحلة والمفاوض الوطني الفلسطيني ، وللانضباط للخطة العامة التي تقررها السلطة بناء على تقديرها الدقيق للوضع . وعباس أوضح بدوره أن ما يسعى إليه هو وقف الأعمال العسكرية التي يقوم بها أبطال الفصائل ، وذلك بواسطة الحوار وليس بواسطة الحرب الأهلية . والمواطن الفلسطيني يأمل أن يكون الالتزام الوطني بالثوابت وبالوحدة الوطنية ضمانة راسخة دون الانجرار إلى الاقتتال الداخلي .

أما الإسرائيليون فيريدونها حربا أهلية فلسطينية ، ويتكلمون بلهجة : "إما أن تفعلوها أنتم وتشفوا غليلنا من حماس والجهاد وشهداء الأقصى أو نأتي نحن إليكم ونشفي غليلنا منكم جميعا ". وقد نقلت صحيفة هآرتس الإسرائيلية منذ حوالي أسبوعين شيئا من الوقائع التي دارت في اجتماع أمني إسرائيلي ـ فلسطيني ، فقالت إن الإسرائيليين كانوا يلحون على قيام الجانب الفلسطيني بالافتتاح اللازم لبرنامج خارطة الطريق ولم يقبلوا التعهد الشفوي الذي قطعه على أنفسهم ممثلو السلطة الفلسطينية بوقف جميع الأعمال العسكرية من جانب الفصائل الفلسطينية . فقال الإسرائيليون إن المطلوب شيء آخر غير التوصل إلى الهدنة وتحقيق النتيجة المطلوبة

بالحوار . وأضافت هاآرتس إن الجانب الإسرائيلي سلم الفلسطيني قائمة تضم خمسين اسما من أسماء قياديي فصائل المقاومة وطلب اعتقال هؤلاء الخمسين على وجه السرعة ، ثم أضاف : ونحن نعلم أنهم لن يقبلوا تسليم أنفسهم طوعا ، ولذا يجب قتل نصفهم !!

ذلك كله على عهدة الراوي . والراوي هو صحيفة هاآرتس .

ومن الواضح أن السير بالسفينة وسط هذه الأجواء العاصفة يعرضها للمتاهة والغرق إذا لم تكن القراءة دقيقة لحدود التقدم والتراجع ونشر القلوع وطي القلوع ، وإذا لم يعرف ركاب السفينة كيف يعالجون مسألة بقائهم معا وظروف حركتهم وسكنهم في هذا الازدحام .

ما الذي يريده الأمريكيون من جانبهم ؟ هل هم منفتحون حقا إزاء الكلمة الفلسطينية والرأي الفلسطيني والقضية الفلسطينية ؟ ما الذي جد عندهم حتى تحدث بوش بالأمس عن الحق بالكرامة الإنسانية والحق بالحرية ؟ وما الذي يعنيه الرئيس الأمريكي بالحديث عن البيئة المريحة التي يستطيع الأب والأم الفلسطينيان فيها تربية الأولاد ونوال فرصة لتعليمهم ولأمنهم ؟

هل هناك فاصل حقا بين مخططات شارون ومخططات بوش ؟ وهل هناك مغزى حقا لوجود مراقبين أمريكيين لمراقبة تنفيذ برامج خارطة الطريق ؟

والأمر الأعمق من ذلك كله : ما هي في حقيقة الأمر البرامج التفصيلية السرية لحرب العشر سنوات في المنطقة ؟ وما نظام الخطوات التي ستؤدي بالأمريكيين إلى تحقيق هدفهم في إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يتناسب مع المصالح الأمريكية ؟ وهل سنعيش نحن الفلسطينيين مثلا على الهامش الضيق الذي يشكل الفارق بين المصالح الأمريكية والمصلحة الإسرائيلية أم أنه لا وجود أصلا لذلك الفارق وأن تصريح بوش بأنه قادر على ممارسة ضغط على شارون ليس إلا سيناريو متفق عليه بين الاثنين ؟